عقيدتي

للفيلسوف الانجليزي المعاصر برترا ندرسل

ترجمة الأديب عبد الجليل السيد حسن

الفصل الثاني

الحياة السعيدة

لقد كان يوجد في أزمان متباينة وبين شعوب متباينة، تصورات مختلفة عن الحياة السعيدة. وكانت الاختلافات — إلى مدى محدود — تنقاد إلى الحجة، وذلك حينما يختلف الناس بصدد الوسائل التي يبلغون بها غاية مقصودة؛ فالبعض يظن أن السجن نهج قويم للقضاء على الجريمة، وآخرون يعتقدون أن التربية أقوم منه. ومثل هذا الاختلاف يمكن فضه بدليل كاف، ولكن بعض الاختلافات لا يمكن أن تختبر بمثل هذه الطريقة؛ فإن «تولستوى» يحمل على جميع أنواع الحروب؛ ويعتقد آخرون أن حياة الجندى الذى يخوض المعارك من أجل الحق في غاية النبل. ومن الممكن في هذا المقام وقوع اختلاف جوهرى متشابك بالنسبة للغايات عند كل منهم، فهؤلاء الذين يثنون عادة على الجندى يعتبرون عقاب الخاطئين خير في ذاته، وتولستوى لا يوافق على ذلك. وفي مثل هذا المجال لا يحتمل الجدال. ولذلك فإن أستطيع أن أجزم بأن نظرتى عن الحياة السعيدة هى الصواب، ولكن أستطيع فقط أن أطرح نظرتى وآمل أن يوافق عليها كثيرون بقدر المستطاع، أما نظرتى فيها هى ذى:

«إن الحياة السعيدة هى الحياة التي يوحيها الحب وتهديها المعرفة»

وكل من المعرفة والحب غير محدود المدى؛ ولذلك فإن أية حياة سعيدة يمكن أن تتخيل حياة أسمد منها. وليس الحب بدون المعرفة أو المعرفة بدون الحب بمجالب الحياة السعيدة؛ ففى العصور الوسطى كان رجال الدين حينما يظهر وباء في إحدى البلاد، ينصحون السكان بالتجمع في الكنائس والدعاء للنجاء؛ وكانت النتيجة أن تنتشر العدوى بسرعة غريبة بين حشود الضارعين، وكان ذلك مثلا للحب بدون معرفة. أما الحرب الأخيرة (يقصد الحرب العالمية الأولى) فقد قدمت خير مثال للمعرفة بدون حب. وفي كلا الحالين كانت النتيجة انتشار الهلاك على نطاق واسع

ومع أن كلا من المعرفة والحب ضرورى؛ إلا أن الحب بمعنى من المعانى أكثر أهمية لأنه يدفع بالأذكياء من الناس إلى البحث عن المعرفة، حتى يعرفوا كيف يفيدون من يحبون، ولكن إذا لم يكونوا بالأذكياء فإنهم سيقنعون بتصديق ما قيل لهم (منذ الصغر) وقد يرتكبون بذلك ضرراً رغماً عن حبهم الصادق للخير. ولعل الطب هو الذى يقدم خير مثال لما أعنى؛ فإن الطبيب القدير أنفع للمريض من أعز أصدقائه. والتقدم في المعرفة الطبية يحسن إلى صحة المجموع أكثر من حب دعاة للانسانية، ومع ذلك فإن عنصر «حب الخير» (١) ضرورى حتى في حالة الاكتشافات العلمية التي لا يستفيد منها إلا الأغنياء

والحب نقطة تتدرج تحتها ضروب من المشاعر، وقد استعملتها هادفاً إلى ذلك لأنى أقصد شمولها كلها. والحب كعاطفة — وهى تلك التي أتكلم عنها لأن الحب يبدو لى أنه أصلى خالص — تتذبذب بين قطبين: في أولهما، السرور المحض في التأمل، وفي ثانيهما حب الخير المحض والسرور لا يتدخل قط إلا حينما يتعلق الأمر بالموضوعات الجامدة، فلا يمكن أن تشعر بحب الخير إزاء منظر طبيعى أو قطعة موسيقية. ومن المحتمل أن يكون هذا النمط من السرور هو مصدر الفن، وهذا أقوى عند الأطفال منه عند البالغين الذين تعودوا أن يتناولوا الموضوعات بروح المنفعة التي تلعب دوراً هاماً في التأثير على مشاعرنا، تجاه الكائنات البشرية: فبعضهم ساحر فتان، وبعضهم على الضد من ذلك، حينما يعتبرون كموضوعات لتأمل الجمال فقط

(١) benayo posce

والقطب الآخر من الحب هو الخير المحض . فهناك رجال قد وقفوا حياتهم على مساعدة المجذومين ، فالحب الذى يشعرون به فى مثل هذه الحالة ليس فيه أى عنصر من السرور الجمالى . والعاطفة الأبوية يصحبها البشر حين يشرق الطفل ، ولكنها تبقى قوية حين يغيب هذا العنصر تماما . ومن الشاذ أن نسمى عناية الأم بالطفل المريض « عاطفة حب الخير » لأننا نكون تسمة أعشار مدعين فى تعودنا استعمال هذه اللفظة لنصف بها عاطفة باهتة . ومع ذلك فمن الصعب أن نجد كلمة لنصف بها الرغبة فى سعادة شخص آخر . وحقيقة أن رغبة من هذا النوع قد تبلغ أعظم درجة من الشدة فى حالة الشعور الأبوى . وفى الحالات الأخرى تكون أقل شدة . وفى الحقيقة يبدو أنه من المحتمل أن كل عاطفة إيثارية (Astwiotic emotion) هى نوع من فيضان (غمرة) الشعور الأبوى ، أو فى بعض الأحيان هى إعلاء له . وللافتقار إلى كلمة أصلح سأسمى هذه العاطفة « عاطفة حب الخير » ولكنى أريد أن أوضح أنى إنما أتحدث عن عاطفة لا عن قاعدة ، وإنى لا أدرج تحتها أى شعور بالسمو ، كهذا الذى يقترن بالكلمة أحياناً . وكلمة « المشاركة الوجدانية » (Sympathy) تعبر عن جزء مما أعنيه ، ولكنها تترك عنصر الحيوية الذى أود أن أشمله

والحب فى أكمل مظاهره رباط وثيق بين عنصرى السرور وحب الخير . وسرور الأب بالطفل الجميل المفلح ، يتضمن كلا العنصرين . كذلك يفعل الحب الجنسى فى أرقى صوره ؛ ولكن فى حالة الحب الجنسى لن توجد عاطفة حب الخير إلا حينما توجد ملكية مضمونة ، وإلا ستعصف به الغيرة ، فى حين أنها ربما تزيد السرور فى حالة التأمل ، والسرور بدون حب الخير قد يكون قاسياً ، وحب الخير بدون السرور يصبح بارداً وقليل السمو . والشخص الذى يرغب أو يود أن يكون محبوباً ، يرغب كذلك أن يكون موضوعاً لحب يشتمل كلا العنصرين ، ما عدا حالات الضعف القصوى ، كما فى الطفولة والمرض الشديد ، ففى هذه الحالات قد يكون « عاطفة حب الخير » هو كل ما يرغب فيه ، وعلى العكس من ذلك فى حالات القوة القصوى يستحب الإعجاب أكثر من حب الخير ، وهذه هى حالة الاحتفال بأصحاب الحول والطول ، والثانيات المشهورات ؛ ونحن نرغب فقط فى تمنيات الخير الطيبة ، حينما نشعر أنا فى حاجة إلى مساعدتهم أو فى خطر من أذاهم ، وعلى الأقل يبدو أن ذلك هو المنطق البيولوجى الموقف ، ولكنه ليس صادقاً كل الصدق بالنسبة للحياة ، فنحن نشتد الود لكى نهرب من الشعور بالوحدة ، ولنكون — كما نقول — « مفهومين » . وهذا هو أهمية المشاركة الوجدانية ، وليس فقط عاطفة حب الخير ؛ فالشخص الذى يرضينا وده ، لا يجب أن يتمنى لنا الخير فقط ، بل يجب أن يعرف فى أى شئ تكمن سعادتنا ، ولكن هذا ينتمى إلى العنصر الآخر من الحياة السعيدة ، وأعنى به عنصر المعرفة

فى عالم كامل ، سيكون كل كائن حساس ، موضوع حب عميق للآخر متألف من السرور وعاطفة حب الخير والفهم . كل ذلك مختلط بصورة معقدة ، ولا يعنى ذلك أنه يجب علينا — فى هذا العالم الواقعى — أن نجهد فى الحصول على مثل هذه الإحساسات تجاه كل الكائنات الحساسة التى نصطدم بها ؛ فهنا كثيرون لا نستطيع أن نحس نحوهم شيأ من السرور ، إذ يتقرز منهم بطبيعتهم . وإذا أرغمنا أنفسنا بمحاولة رؤية أى جمال ، فإنا نبلد بذلك إحساساتنا نحو ما نجده جميلا حقيقة . وقد لا نعنى بذلك الكائنات البشرية فهناك البراغيث والقمل والبق ، فإنه لحتم علينا أن نكره أنفسنا بشدة كالبحارة القدماء قبل أن نشعر بالسرور من تأمل هذه المخلوقات . وبعض القديسين — وهذا ثابت فعلا — قد دعاها « لآلئ الله » ولكن ما كان يسر به هؤلاء الرجال هو فرصة إظهار قداستهم فقط

من السهل اتساع دائرة حب الخير ولكن إلى حدود معينة . فإذا أراد رجل أن يتزوج سيدة فلا نظن أن من الخير له أن يتراجع إذا وجد شخصاً آخر يريد زواجها ، بل علينا أن ننظر إلى ذلك كميدان حر للمنافسة ، ومع ذلك فإن مشاعره تجاه أى منافس يمكن أن تكون خيرة جميعها . وأحسب أننا هنا على الأرض عند أى وصف للحياة السعيدة يجب أن نضع نصب أعيننا بعض أسس الحياة الحيوانية والغريزة الحيوانية ؛ فبدون هذا تصبح الحياة فاقدة الروح غير ذات أهمية ، ويجب أن تكون

المدنية شيئاً يضاف إلى هذا لا شيئاً يستعاض به عنها ، فالقديس الزاهد والحكيم المتزن يفضلان على هذا الاعتبار فى كونهم كائنات بشرية كاملة . وعدد صغير منهم قد يثقف ويزين مجتمعاً ، ولكن عالما مؤلفا منهم قد يموت من الانحلال

وهذه الاعتبارات تؤدى إلى توكيد أن عنصر السرور أحد العناصر الجوهرية فى أنواع الحب . والسرور — فى هذا العالم الواقعى — أمر اختيارى لا مفر منه ، ويمنعنا من أن يكون عندنا نفس المشاعر تجاه الجنس البشرى كله وحينما ينجم التعارض بين السرور وعاطفة حب الخير يجب أن يفضا باتفاق متبادل ، لا بالتسليم التام من كليهما ، فللغريزة حقوقها ؛ وإذا شددنا عليها النكير أكثر من حد معلوم ، فإنها تثأر لنفسها بطرق ملتوية ، ومن ثم ينبغى أن يكون مدى إمكانيات الإنسان حاضرة فى أذهاننا حينما نهدف إلى حياة سعيدة . وها نحن أولاء قد رجعنا ثانية إلى ضرورة المعرفة

وحينما أتكلم عن المعرفة كأحد العناصر الجوهرية فى الحياة السعيدة ، لا أفكر مطلقا فى المعرفة الأخلاقية ، بل فى المعرفة العلمية ، والمعرفة ذات الحقائق الدقيقة . ولست أحسب أنه يوجد — وأنا أتكلم على سبيل الحصر — شئ اسمه المعرفة الأخلاقية . فإذا أردنا أن نصيب هدفا معينا ، فإن المعرفة قد ترينا الوسائل . وهذه المعرفة قد تمر مع شئ من التساهل على أنها معرفة أخلاقية ؛ ولكنى لا أظن أنا نستطيع أن نقرر أى نوع من السلوك هو حق أو باطل إلا بالإشارة إلى نتائجه المحتملة . وتحديد غاية لبلوغها مسألة ، العلم هو الذى يكتشف لنا كيف نبلغها . وكل الأسس الخلقية يجب أن تختبر بالتحقق من أنها تفضى إلى تحقيق الغايات التى نرغبها . وأقول الغايات التى نرغبها لا الغايات التى « ينبغى » أن نرغبها . لأن « ما ينبغى » أن نرغبه ليس شيئا أكثر مما يريد شخص آخر أن نرغبه . وعادة هو ما ترغب السلطات أن تريده — كالوالدين والأساتذة ورجال البوليس والقضاة — وإذا قلت لى : « يجب أن تفعل كيت وكيت » فإن القوة الباعثة على قولك تكمن فى رغبتى فى موافقتك لما قد يحتمل من الجزاء أو العقاب المرتبط بموافقتك أو مخالفتك ، وما دام كل سلوك يصدر عن الرغبة ، فمن الواضح أن الأفكار الأخلاقية ليست لها من أهمية إلا بمقدار ما تؤثر به على الرغبة . وهم يفعلون ذلك رغبة فى الموافقة وخوفا من المخالفة ، لأن هذه قوى اجتماعية شديدة : وسنحاول بالطبع أن نكسبها إلى جانبنا إذا رغبنا أن نحقق أى غرض اجتماعى . وحين أقول إن خلقية السلوك يجب أن يحكم عليها بنتائجها المحتملة ، أعنى أنى أرغب أن أرى الموافقة تطلق على السلوك المحتمل أن يحقق أغراضا اجتماعية ، والمخالفة تطلق على السلوك المضاد . وهذا لا يفصل فى الوقت الراهن ، لأن هناك سننا تقليدية معينة ، يقاس بمقتضاها الموافق والمخالف والملائم والمنافر ، دون نظر إلى النتائج . ولكن هذا موضوع سنتناوله فى الفصل التالى

إن الزيادة فى الأخلاق النظرية لواضحة فى حالات بسيطة . فلنفرض مثلا أن طفلك مريض ، فالحب يجعلك تريد أن تشفيه ، ولكن العلم هو الذى يخبرك كيف تعمل ذلك . وليس هناك من مرحلة وسطى فى النظرية الأخلاقية ، حيث يتضح أن طفلك كان يحسن أن يشفى ، وفعلك يصدر مباشرة عن الرغبة فى الوصول إلى هدف ، وأيضا فى نفس الوقت مع معرفة الوسائل إليه . وهذا صادق تماما فى كل الأفعال سواء أكانت خيراً أم شرا . والغايات تتباين ، والمعرفة أكثر سدادا وصلاحية فى بعض الحالات منها فى الأخرى ، ولكن ليس هناك من طريق تتصور لجعل الناس يؤدون مالا يرغبون فى أدائه ، ولكن الشئ الممكن هو أن نغير رغباتهم عن طريق نظام الجزاء والعقاب اللذين من بينهما الموافقة والمخالفة الاجتماعية ، لا تقل قوة . ومن ثم فإن المسألة للمشرع الأخلاقى هى كيف يمد نظام الجزاء والعقاب هذا حتى يصون أقصى حد ترغبه السلطة المشرعة ؟ فإذا قلت أنا : إن السلطة المشرعة نياتها سيئة ، فإنى أعنى فقط أن رغباتها تتعارض مع رغبات قسم من المجتمع أنتمى إليه ، لأنه ليس هناك من مستوى خلقى خارج الرغبات البشرية

وهكذا فإن ما يميز الأخلاق من العلم ، ليس هو أى نوع خاص من المعرفة ، بل هو الرغبة . والمعرفة المحتاج إليها فى الأخلاق ، هى بالضبط مثل أى معرفة أخرى . والشئ الغريب هو أن هناك غايات يرغب فيها . والسلوك الحق هو الذى يفضى إليها ، وبالطبع إذا كان تعريف السلوك الحق يثير رغبات واسعة

بريطانيا العظمى

الأستاذ أبو الفتوح عطيفة

وبعد فحيرة :

لعل السؤال التالى يجول بخاطرك أيها القارئ الكريم : من يحكم إنجلترا ؟ أهو مليكها أم رئيس الوزراء أم مجلس العموم أم مجلس اللوردات ؟ وأنا أجيبك عن هذا السؤال فأقول : إن مجلس العموم هو الذى يحكم إنجلترا ؛ ذلك أن مجلس العموم يمثل الشعب البريطانى أصدق تمثيل ، ورئيس وزرائها لا يستطيع أن يبقى فى مركزه يوما واحدا إذا قبض هذا المجلس عنه ثقته ، وإذن فمصدر السلطات جميعا هو الشعب البريطانى ، وأما ملك إنجلترا فإنه حسب التقاليد يملك ولا يحكم ، وأما مجلس اللوردات فهو مجلس تقليدى ليس له من الأمر شئ

وأحب أن أضرب للقارئ مثلا عن الديمقراطية فى بريطانيا وهو مثل قريب جدا إلى الأذهان، ولكنه يبين لنا إلى أى حد يعتبر مجلس العموم ممثلا للشعب البريطانى ، ويوضح أيضا مدى الحرية التى يختار بها هذا الشعب نوابه وممثليه . إننا جميعا نذكر أن مستر تشرشل زعيم حزب المحافظين كان رئيسا للوزارة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وإننا نذكر أيضا ذلك المجهود الجبار الذى قام به حتى أنقذ بريطانيا من أشد أزمة مرت بها فى تاريخها ، ومع هذا فعقب انتهاء الحرب ١٩٤٥ أجريت الانتخابات لمجلس العموم وأدار دفتها مستر تشرشل ، وسقط مرشحوه أى مرشحو المحافظين ونجح مرشحو حزب العمال وأحرزوا الأغلبية فى مجلس العموم ، فانتقلت الوزارة من يد تشرشل الكافح العظيم والمناضل الكبير إلى يد مستر أتلى زعيم حزب العمال لأن الشعب يرغب فى ذلك ، ولم يطعن المستر تشرشل فى نزاهة الانتخابات طبعا ، ولم يرم الشعب البريطانى بالجحود وبنكران الجميل ، وسلم بالأمر الواقع طائعا مختارا !

ومثال آخر أحب أن أسوقه للقارئ الكريم . دعى مستر تشرشل لحضور مؤتمر بوتسدام فى صيف ١٩٤٥ باعتباره مندوبا عن بريطانيا — وكان هذا المؤتمر يضم مندوبى الدول العظمى ، ولكن مستر تشرشل لم يذهب إلى المؤتمر بمفرده ، بل اصطحب معه المستر كلمنت أتلى زعيم المعارضة ورئيس حزب العمال . لماذا ؟ لأن إنجلترا كانت مقبلة على انتخابات ، وربما جاءت الانتخابات بما لم يشته مستر تشرشل — وهذا ما حدث فعلا — وانتقلت الوزارة إلى العمال ، وإذن فيجب أن يكون زعيم العمال على علم بما يجرى فى المؤتمرات الدولية

وهكذا نرى أن بريطانيا تعتبر بحق زعيمة الدول الديمقراطية . إن جميع أفراد الشعب البريطانى البالغين رجالا ونساء ينتخبون ممثليهم أو نوابهم إلى مجلس العموم فى حرية تامة ، وهؤلاء النواب هم الذين يقيمون الوزراء وبدون تأييدهم تسقط الوزارة ، وإذن فالشعب البريطانى ممثلا فى نوابه هو الذى

متعددة ، فإن الغايات يجب أن تكون كما يريد أقسام كبيرة من الجنس البشرى . فإذا عرفت السلوك الحق بأنه هو الذى يزيد دخلى الخاص ، فإن الفقراء لن يوافقوا ، وإن القسوة كلها فى أية حجة أخلاقية لتكمن فى جزئها العلمى ، أعنى فى البرهان على أن نوعا من السلوك أكثر من سلوك آخر وسيلة لغاية مرغب بشدة . ولكنى أميز بين الحجة الأخلاقية والتربية الأخلاقية ، فالأخيرة تتوقف على تقوية رغبات معينة وإضعاف أخرى ، وهذه عملية مختلفة تماما ستناقش وحدها فى مكان آخر

ونستطيع الآن أن نشرح بدقة أكثر معنى تعريف الحياة السعيدة . الذى بدئ به هذا الفصل فحين قلت إن الحياة السعيدة تتألف من الحب الذى تهدى إليه المعرفة ، كانت الرغبة التى دفعتنى هى الرغبة فى أن نعيش حياة أطول ما يمكن ، وأن نرى الآخرين يعيشون نفس الحياة . والإقناع المنطق فى هذا القول هو أنه فى مجتمع يعيش فيه الناس فى هذه الصورة ، سترضى رغبات أكثر من مجتمع آخر ، فيه ـ ب أقل ومعرفة أقل ، وأنا لا أعنى أن مثل هذه الحياة « فاضلة » أو عكسها « رذلة » لأن هذه تصورات يبدو لى أن ليس فيها تأييد على

عبد الجليل السيد حسن